

المقتطف

مجلة علمية وثقافية زراعية

الجزء الخامس من المجلد السادس والسبعين

١ مايو سنة ١٩٥٠ - ٢ في المجلد ١٣٤٤

الأقليم وأثره في التاريخ

نهوض الأهم وانحطاطها أو بالحري تاريخها، مرهون بمحنة عوامل أساسية هي العامل الجغرافي والعنصر البيولوجي والذات التاريخي والاشعاع الشمسي والاشعاع الأرضي وكل عامل منها قد يصيبه شيء من التحول على حدته ولكن كلاً منها يتأثر بالعوامل الأخرى إلى حد بعيد. أما العامل الجغرافي فهو أقربها إلى الاستقلال عن غيره. فاللسان على شدة تأثره بالأحوال الإقليمية من عصور الجليد إلى الآن لا يستطيع أن يمنع أثرها ولا أن يغيره. على أنه يستطيع أن يزيل الغابات يقطع أشجارها والقضاء على بعض الحيوانات البرية يقتصها وقتلها واضاف الرقة بموالاته الأخذ منها من غير اعطائها - أي من غير تسميدها - وري الصحاري ونشر الاحياء التي تنقل جراثيم الأمراض.

هذا من العامل الاول. أما العامل البيولوجي فمداره أثر الوراثة البشرية وعلاقتها بالتحول الفجائي (mutation) والانتخاب الطبيعي، والهجرة، والزواج، والزواج بين الشعوب. وأما العامل الاثروبولوجي فيشتمل على أسباب المعيشة على سمها، وتثقب أبوابها، كالطعام واللباس والسكن والادوات والفنون والمعتقدات المختلفة. ويتصل بالعامل

جهة وتكون الارض الجيولوجية من جهة اخرى يعين الاماكن التي تكثر فيها المواد اللازمة للصناعة والاماكن التي تفرع فيها الصناعات وتزدهر. كذلك يعين الاقليم المناخ التي تفيض منها القوى الانسانية وتطلق. وتسير الاقليم يمتد على الهجرة والهجرة تسبب الحروب التي يأتي في اثرها اختلاط وتلاصق في الافكار لا يبدؤها لارتقاء العمران. يضاف الى ذلك ان أثر الصحة والمرض في سير التاريخ الاقتصادي قد لا يقل مقاماً عما تقدم. فان نصف سكان الكرة الأرضية طاجزون عن القيام بأعمالهم قيام الأصحاء بها لأنهم مصابون بالطفيليات المرضية. والمرض كما لا يخفى بضعف الأمم ويقوض أركان الامبراطوريات. وفي هذا القدر كفاية لبيان مالهوامل البيولوجية من أثر كبير أساسي في تاريخ العمران. فلتنظر الآن في عامل الاقليم على حدته

اذا تبينت المناطق الاقليمية على سطح الكرة الأرضية (كما هي معينة الآن ازاء ما كانت عليه في عصر الايوسين)^(١) انصلت المناطق المعتدلة التي تحدها الاصقاع المتجددة من الشمال ومن الجنوب، عن المناطق الاستوائية بواسطة منطقتين جابتين تمتد فيهما صحاري الارض الكبرى. أما المناطق التي تكثر فيها الحضار ويستطيع الانسان أن يعيش فيها فهي المناطق المعتدلة والاستوائية. ولكن المنطقة المعتدلة تسيطر على المنطقة الاستوائية بيزة كبيرة. اذ فيها تحدث تقلبات الطقس المتوازية - وتعرف بمنطقة المرافص الزوبية - وهذا النوع من الطقس على ما أثبت الاستاذ الزورث هتتسن هو أبعد العوامل أثرأ في اطلاق القوة البشرية، حشاشا من الازمان

الشيئين بالقرود وعينيه ذراؤنا فيما يسبق باثر الاقليم في شؤنه هذا لآثران في مجال التحسين. ولكتنا لانكاد نرتاب في أن الجفاف الذي أعاب الارض في أواخر العصر الثلاثي^(٢) حل أسلافنا على النزول من الأشجار الى السهول. والآلة الجيولوجية تبين لنا ان سلسلة جبال الحلمايا كانت مرتفعة في ذلك العصر. وقد قيل ان منشأ الانسان الاول كان الى الشمال من هذه السلسلة. لأنه لما أخذت الارض تجف في هذه البقاع أخذت الحراج تكثف رويداً رويداً الى الجنوب حتى اصطدمت بجبال حملايا الشاهقة. فزال كذلك من

(١) و(٢) الايوسين لحظة اقتربها السر تتأثر ليل الجيولوجي تطلق على العهد الاول من العصر الثلاثي (Tertiary) وهو العصر الذي بدأت فيها الاحياء البوثة بالظهور من نحو ثمانية ملايين سنة وهو ثلاثة اقسام التليل الحدائة الايوسين locene والمتوسط الحدائة الميزوسين miocene والكثير الحدائة پليوسين Pliocene

تلك المنطقة . اما سكانها الاثريون قاضطروا وان تحولوا طبقاً لمقتضيات الحياة الجديدة - اي ان يصبحوا قادرين على ان يبشوا مبيشة ارضية وبدأوا كالأحما الحيوانات - او يفرضوا وسواء كان هذا الرأي في جانب الصواب كله او بعضه ، فإلا شك فيه ان الانسان كان قد ارتقى واستقل بصفاته الخاصة به لا طفا على الكرة عصر الجليد من نحو خمسمائة الف سنة . واكثر آثار الانسان في عصري الجليد الاول والثاني وجدت في اوربا ، وما لم نجد غيرها في سائر البلدان فيبقى متحذراً علينا معرفة آثار تقدم الجليد وتأخره ، اي مدته وجزره ، في ارتقاء انسان اثناء العصر الحجري القديم

والمرجح ان في العهد الاخير من العصر الحجري القديم اي حينما اخذت طبقة الجليد تقشع ورويدا ورويدا أمزاجحة الى الشمال ، كانت منطقة المواضع الزوبية واقعة فوق شمال اترقية مما جعل الصحراء الكبرى بلا دأ خصبة ومرجاً فضرة . والمظنون كذلك ان قبائل الانسان الحديث قدمت اوربا من اترقية وجنوب آسيا من نحو عشرين الف سنة قبل المسيح وهذا التاريخ تقديري فقط ولما اخذت رقعة الثلج تتحسر عن الارض مرتدة الى الشمال تبعها منطقة المواضع الزوبية التي يكثر فيها تقلب الطقس ، واخذت الصحراء الكبرى تدخل وريداً وريداً في المنطقة الخلفية التي تفصل عادة بين المنطقة المتدلة والمنطقة الاستوائية . ولا تزال نبت في بعض نواحي الصحراء الكبرى على تماسيح واسماك تعيش في اناء العذب في واحات مشورة هنا وهناك . ولكن هذه الواحات معزولة لاصلة بينها وبين البحار او البحيرات المروقة . فالحيوانات المائية التي تعيش في هذه الواحات انما تعيش في بقايا مياه الصحراء التي كانت في ذلك العصر خضراء مبرحة ، بل وفي بعض نواحيها كانت اقرب الى المستنقعات منها الى المروج . وجفاف الصحراء كان باعث الذي دفع بامواج البشر تنزى شمالاً وجنوباً

٢

في ذلك الاثناء كانت البلاد حول البحر الابيض المتوسط والمنتدة الى المراقين وثركتان اخضب البدان وانغاضها بالحيوية الانسانية . وهذه الحقيقة الاقليمية احدثت بانقلابات خطيرة في تفرق الشعوب . فقبائل الجدلينين ، وهم من بقايا قبائل العصر الحجري القديم ، اخذوا يسيرون شمالاً امام الحجاج التي كانت تبت في البدان التي ينقشع عنها سائر الجليد ، جارين في اثر الحيوانات التي تقدمت سير الحجاج . اخيراً وجدوا قوسهم محصورين بين الحجاج وشواطئ بحر تزيين فضاقت مجال البش في وجوههم فعاشوا هناك عيشة فقيرة وفاقة مكتفين بصيد محار البحر وحي كروش الطبق . اما السلائل المنحدرة من شعوب العصر الحجري التي ظلت تقيمة في شمال اترقية واسبانيا فالتأت حضارة تترف بالحضارة القزوينية

(سبة الى بحر قزوين) وفي عهد تال انتشر ابناءؤها شمالاً حتى وصلوا الى غرب آسيا ولما اخذت السهول التي تتكشف من ارتداد الجليد، تضيق بضيان الحراج عليها قلت الحيوانات التي كانت مصدر الصيادين القدماء في تحصيل الرزق. فاضطروا ان يلتفتوا الى مصادر اخرى للطعام. فصحروا جمعين للطعام وصيادين في آن واحد، واصبحوا يأكلون الحوز واللوز والكبوش والحنطة البرية. وازرايح انهم حسبوا ذلك نازلة حلت بهم حيثفر ولكنها كانت شاحداً لهم ومبارزاً للارتقاء. لانهم انتقلوا من جمع الطعام الى زرعهِ ونجيه اي الى فنون الزراعة الاساسية. وكانت هذه الخطوة طبيعية. والظاهر ان هذا الانتقال اي استنباط فنون الزراعة تم في نحو الالف الخامسة قبل المسيح في الشرق الادنى. فني بعض الاماطير ان الالاهة ايزس وجدت حطة على جبل الكرمل في فلسطين واعطتها لابنها. ولعل هذه الاسطورة تشمل على حقيقتين اساسيتين: (الاولى) المرجح ان النساء سبقن الرجال الى استنباط فكرة الزراعة — زراعة الحنطة — لان عمل الرجال كان لا يزال في سارح الحديد والقص (ثانياً) والمرجح كذلك ان زراعة الحنطة استنبطت اولاً في سورية او في جوارها. وحوالي سنة ٥٠٠٠ ق. م. كانت زراعة الحنطة قد اتصلت بالفرانك من فلسطين فاستقرت بعض الطوائف في ميسينا. والمرجح كذلك انه لما رأى الانسان كيف تفضل الحجارة التي يستعملها « للزق » خطر له ان يفضل ادواته يدور. فاذا صح ذلك فالزراعة هي سبب انتقال الانسان من العصر الحجري القديم الى العصر الحجري الجديد. وعلى كل حال فالزراعة والادوات الحجرية المنصولة الخاصة بالعصر الحجري الجديد ظهرت في الشرق القديم.

والمرجح ان صناعة الخزف والنسج استنبطت في اوقت الذي كشف به عن فنون الزراعة. ثم بنيت البيوت الاولى واستقرت المعيشة. وتلا ذلك تدجين الحيوانات. والظاهر ان الصيادين استنبطوا تدجين الحيوانات اولاً ولكن الزراعة المستقرين تعلموا هذا الفن وانتقوه ونشروه. ولم تأخر صناعة المعادن الفلزية عن الظهور مع ان قروناً انتقضت والمعدنان الوحيدان المستعملان هما الذهب والنحاس — النحاس للادوات والذهب للزينة على ان العصر الجليدي لم ينقض تدريجياً. بل كانت تأتي فترة يرتد فيها الجليد ارتداداً سريعاً ثم تليها فترة اخرى يثبت فيها الجليد على حاله او يرتد ارتداداً بطيئاً او يتقدم قليلاً الى الامام. والظاهر ان سبب تقدم الجليد الى الامام بدلاً من ارتداده كان ارتفاع سطح الارض. والثابت ان ارتفاعاً من هذا القيل كان في دور الحدوث في منتصف القرن الخامس قبل المسيح. فتج عنه امران. (الاول) ازدياد سقوط الثلج في مرتفعات ستي الراقديني

فتجم عن ذلك طوفانات عظيمة في فصل الربيع سنة بعد سنة ، فاضطرَّ السكان أن يخلوا بعض المدن . وذكريات تلك الايام المروعة لأزوال محفوفة في قصة الطوفان وغيرها من الأساطير العراقية القديمة . (الثاني) على أن أثر ذلك في مصر كان على أعظم جانب من الخطورة ذلك ان وادي النيل ، كانت ، قروناً قبل حدوث هذا الارتفاع في سطح الكرة مستقماً لا يقطن . فلما ارتفعت الأرض جُفِّفَ المتحرف . وأصبحت المنطقة الخصبه الممتدة على ضفتي النيل هدفاً لزراع البدان المجاورة . هذا على ما يظهر كان منشأ الحضارة بمناها الصحيح في مصر . فلما وسخت أصولها ساعدها بوقع مصر الجغرافي على التقدم والتفوق على الحضارات الاخرى المجاورة لها

وعليه يرى القاري ان تغير الاقليم في الصور القديمة حمل الانسان على الانتقال من الصيد الى الزراعة . والاثبات ان الحضارة الاركية أي الحضارة القائمة على زراعة الحنطة والمعيشة المستقرة بيوتها وخرقها ومنسوجاتها وضاعتها المدنية كانت منتشرة من سوريا الى فلسطين الى ستي دجلة والفرات قبل سنة ٤٠٠٠ ق . م . هذه البقعة من سطح الكرة الارضية كانت مهد العالم الحديث - وسبب ذلك اقليمها ، وانهارها العظيمة ، وانها موطن الحنطة الاصلية والملتقى الطبيعي لتيارات الحضارات المختلفة التي بشت عليها هجرات القبائل من الشرق والغرب والشمال والجنوب

وكان الانسان قد استنبط ، قبل سنة ٤٠٠٠ ق . م الكتابة والتقويم والري والصحابة (انبولاب) وضع الحور المحترمة . ففي الالف التي تلت ذلك أخذت هذه الحضارة ترتقي وتوسع نطاقاً . وكان ذلك الزمن زمن انخفاض في الأرض ، ورطوبة في الجو في منطقة المرامي الاسوية وشبه جزيرة العرب ، ولذلك كان السكان الرُّحَّل الذين يقطنون هذه البلدان يعيشون فيها ويشكرون لا يبدفهم الحفاف الى هجرتها والتعدي على بلاد جيرانهم . أما ما بلنته الحضارة العراقية القديمة فأكبر دليل عليه هذه الآثار النفيسة التي عثر عليها في أور الكلدانيين والتي يعود تاريخها الى ٣٥٠٠ ق . م

ولكن الأرض الصالحة للسكن والمعيشة في هذه البقعة من الأرض - الشرق الأدنى - كانت آخذة في الازدهام بالسكان . وهذا الازدهام اتفق وقوعه في عهد حدث فيه ارتفاع في سطح الأرض عقبه جفاف شديد . فتجم عن ذلك ان الحضارة الاركية تداعت أركانها في موطنها الأصلي وأخذت في الانتشار الى مواطن اخرى في آسيا وأفريقيا وأوروبا

٣

وقد كان مطلع العهد الجديد زاهياً زاهراً . فان الحضارة المصرية ، وقد استخفها

ماناته من فوز سابق في ميادين الابداع ظلت تنتقل من فوز الى فوز . فبنت
هاكل نعمة بالحجارة ، وشيدت الاهرام الحجية ضخامتها ودقة بنائها ، وارتقت الرياضة
وعلم الفلك وسيطر على الدولة نفة معينة همها الحكم (بيورقراطية) . وبميد ذلك قام
الملك سرغون في العراق وهو اول الفاتحين النظام ، فانشأ دولة في « موج المايا على رؤوس
الامل » اي بقوة الحيوش

والحيوش كانت استنباطاً جديداً . فالصيادون الافدمون كانوا ولا شك بحاربون
ولكن حريمهم لم تكن منتظمة قط . والظاهر ان جامعي الطام ، والزراع الاولين كانوا
ينشون مينة سلام واستقرار بوجه تام . ولكن الحرب ابتدأت لما ابتدأ الانسان
المستقر المينة يناضل جاره على ارضه وحقوقه . وانتشرت فكرة الحرب الى القبائل
الرحل القاطنة على حدود البلاد المستمرة التي فيها سكان مستقرون فوافقت طبائها
لانه كان في امكان هذه القبائل ان تصيب في الحروب نجاحاً كبيراً لانها في اثناء انتقالها
من حالة « القنص والصيد » الى حالة القبائل الرحالة تعلم ابناءؤها تون الفروسية واجادوها .
والمرجح ان الفرس وجد اولاً في مراعي اسيا حوالي سنة ٣٠٠٠ ق . م . فلما بدأ عصر
الجناف المشار اليه انطلق هؤلاء الفرسان من المراعي وطنوا على البدان الزراعية ، بجلبهم
وبفرسانهم . فكانوا في الحرب حينئذ يدعة مروعة كبدعة السيلبات في الحرب الكبرى . فنشوا
ارض مصر والعراق واصبحت حضارتهما منهم في خطر الانقراض

وهذا الضغط الذي نزل بالزراع دفعهم الى الانتشار في الجهات الاخرى . فنزلت
جالياتهم الاولى في اوربا حوالي سنة ٣٠٠٠ ق . م . ولكن لم تنفض الف سنة اخرى الا وكانوا
قد دخلوا في ارضية المانيا وفرنسا وروما . وقد انتشرت حضارتهم في البحر
على السواحل واصبح البحر الايض المتوسط حينئذ بحيرة تبحج بسفهم . حتى فقد وصل
بعض بحارة الابحيين الى المحيط الاطلنطي نحو سنة ٢٢٠٠ ق . م . وفي الوقت نفسه اتصلت
موجة من امواج الهجرة شرقاً فوصلت الى الهند ثقافة جديدة ومنها اتصلت بالصين
والمرجح ان ذلك كان جرثومة الحضارة الصينية . وقد تكون القارة الامريكية قد
حصلت على بزور حضارتها الاولى عن طريق الصين ومضيق بيرنج الذي كان طرفاً متصلين حينئذ
وظل التوسع البحري قائماً في الالف التالية (٢٠٠٠ ق . م ١٠٠٠ ق) وخصوصاً في
الجانب الشمالي الغربي من اوربا واتصلت التجارة البحرية بارلندا والبدان السكندناوية
فارتقت الحضارة الارلندية ارتفاعاً لا يمتثل في الغالب إلا بالاقليم الجلف المنشط الذي
سبق الرطوبة الشديدة التي خيمت في جو ارضه قاضفت قوى الارلنديين وقتت من عزائمهم
[اتمت في الجزء القادم]